البحث عن الاستقرار

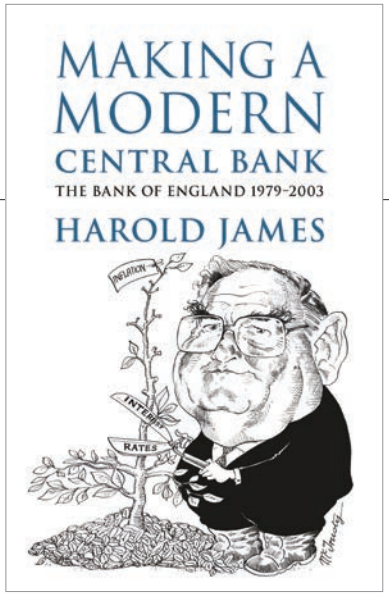

هارولد جيمس
صناعة بنك مركزي حديث: بنك إنجلترا المركزي ١٩٧٩–٢٠٠٣

Harold James
Making a Modern Central Bank: The Bank of England 1979–2003
Cambridge University Press,
Cambridge, UK, 2020, 350 pp., $110

عندما استعاد بنك إنجلترا المركزي استقلاله في عام ١٩٩٧، كان منحنى تاريخه الطويل عبر سنوات القرن العشرين قد بلغ نهايته: من تمتعه بقوة كبيرة قبل الثلاثينات من القرن الماضي، مرورا بعقود تم تهميش دوره خلالها ليكون الفرع التشغيلي لوزارة الخزانة، وامتدادا عبر فترة استعاد فيها سلطته في أواخر السبعينات وخلال الثمانينات، وأخيرا برجوعه إلى مكانته التي ينأى فيها عن الأنشطة السياسية اليومية. ونظرا لأن بلوغ هذه المحطة النهائية لم يكن بالأمر الحتمي، فإن الهدف من هذا الكتاب، الذي يتناول أحداث ربع قرن من عام ١٩٧٩ إلى عام ٢٠٠٣، هو سرد قصة مجموعة من الشخصيات المتميزة في سعيها لبناء مؤسسة جديرة بالحصول على استقلالها عندما نفدت كل الحلول النقدية المبتكرة لدى رجال السياسة والطبقة البيروقراطية. ويحمل الكتاب العنوان الصحيح (تقريبا) وغلافه ملائم، حيث يمثل «إيدي جورج» — وهو ربما أفضل محافظ لبنك مركزي في الجيل الذي جاء بعد «بول فولكر» — تجسيدا للتحول من القديم إلى الجديد.

ويبحر هذا الكتاب الذي يتمتع بالثراء وبعد النظر للمؤلف هارولد جيمس في ثلاثة أبعاد هي تاريخ الاقتصاد والسياسات، وتاريخ المؤسسة، وتاريخ التنظيم. ويتبع النمط التقليدي المتمثل في شغل الحيز بين الأحداث على مستوى السياسات والتنظيم، ولكن مع التركيز على موضوع أساسي عن دور التغييرات والمناقشات الداخلية في تمهيد الطريق للإصلاح المؤسسي.

وهو كتاب جدير بالقراءة بالنسبة للمهتمين بالتحولات والتقلبات في السياسة الاقتصادية الكلية البريطانية بقيادة وزارة الخزانة أثناء ثمانينات القرن الماضي ثم تعافيها خلال التسعينات. وكذلك بالنسبة للمهتمين بكيفية تخلي نظام للرقابة المصرفية القائم على الحكم التقديري، بعد نجاحه في الحفاظ على استقرار النظام المالي، عن إدارته للأمور، بعد سلسلة من الإخفاقات المتفردة المزعجة (مؤسسة JMB المصرفية، وبنك الاعتماد والتجارة الدولي، وبنك Barings)، لتؤول إلى إطار تنظيمي خارج نطاق البنك المركزي، مما أدى إلى انهيار النظام.

ويستعرض الكتاب المبادرات على مستوى السياسات، والانتكاسات، والإصلاحات بصورة منمقة. ولكننا لا نتعرف إلا على النذر اليسير بشأن العداوات والرؤى الشخصية التي دفعت عجلة التقدم.

فإذا كان «غوردون ريتشاردسون» قد أعاد تأسيس سلطة محافظ البنك المركزي، فقد شكّل روبن لي–بيمبرتون فريقا من الخبراء ذوي القيمة العالية وعزز قدراته (بحيث ضم في عضويته آندرو كروكيت، الذي شغل لاحقا منصب رئيس بنك التسويات الدولية)، وقام جورج بلاندن بإزالة العقبات القائمة، وقام بتوزيع ثمار تلك الجهود إيدي جورج وميرفين كينغ، فكان دورهما في تحقيق التحول الاستراتيجي لقدرات البنك لا يمكن المزايدة عليه. غير أننا لا نعرف كثيرا من تفاصيل الأحداث.

ومن الأمور التي يصعب تصديقها حتى ونحن نستعرض أحداثا ماضية، أن الحكومة البريطانية كانت تعارض بشدة شغل إيدي جورج منصب نائب محافظ البنك المركزي، ولم تذعن إلا بشرط تقييدي وهو أن ذلك المنصب ليس طريقا إلى القمة (وذلك في رسالة قمت بنفسي بتسليمها حيث كنت أشغل في ذلك الوقت منصب السكرتير الخاص للمحافظ). ولن يستوعب القارئ كذلك حقيقة الصراع الداخلي الذي امتد على مدار عقد ونصف العقد من الزمن، حتى شارف على التسبب في وقوع حرب أهلية، حول طبيعة دور البنك في تحقيق الاستقرار المالي، الذي لم يبلغ غايته (الحالية) إلا بعد أزمة عام ٢٠٠٨.

ومن ثم فقد نجح جيمس في عرض قصة السياسة الاقتصادية البريطانية في أواخر القرن العشرين مع التركيز على بنك إنجلترا المركزي. ووضع الأساس كذلك لدراسة ذات طابع سياسي–اجتماعي هناك حاجة ماسة إليها تتناول القصص الأكثر عمقا حول هذا التجديد المؤسسي.

ولا يفوتني هنا الحديث عن عنوان الكتاب. بعد حصول بنك إنجلترا على استقلاله بفترة وجيزة، اجتمعنا على طاولة الغداء بالفريق الاقتصادي لحزب العمال الجديد، وكان أعضاؤه يشعرون بالقوة والزهو. وقالوا، «في إطار عملية «التحديث»، يجب أن تتخلصوا من الزي الرسمي للمضيفين والذي يعود إلى القرن الثامن عشر. فكان جوابنا بأن البنك يمكن أن يبلغ مصاف العالمية دون التخلي عن تقاليده. وفي نهاية الأمر، فإن كلمة «حديث» ليست الكلمة الصحيحة في هذا السياق؛ فالجيلان اللذان أشرفا على إعادة تصميم عمل البنك لم يكن سعيهما منصبا على الأزياء، بل على الاستقرار. وفي هذا الشأن، كنا جميعا نقف صفا واحدا، وهذا هو الأمر المهم حقا. FD

بول تاكر، مؤلف كتاب *"Unelected Power"*، وسبق له العمل في بنك إنجلترا المركزي من عام ١٩٨٠ إلى ٢٠١٣.